

ذلك زيد بن عمرو بن نفيل ، من بني عدى بن كعب ؛
وأولئك أصحابه : ورقة بن نوفل ، وعبيد الله بن جحش ، وعثمان
ابن الحارث .

أربعة نفر أضاء الله لهم على حين غفلة وضلال ، فسبقوا قومهم
إلى التوحيد والإيمان بالله ؛ وجلسوا يدولون الرأي بينهم ، فأجمعوا
أمرهم على أن يتفرقوا في البلدان يسألون أهل العلم ما يعلمون عن
دين إبراهيم ...

وأقام زيد بن عمرو بمكة زماناً ، معتزلاً قومه وما يعبدون
من دين الله ؛ لا يؤاكلهم ولا يشاربهم ، ولا يخشى أن ياديهم
بالعيب على ما هم فيه ، وحرّم على نفسه ما أحلوا لأنفسهم من الميتة
والدم وما ذُبح على التّصّب .

وعرف القرشيون ما أجمع عليه أمره ، فاعتزلوه وخلّوا بينه
وبين نفسه ، لكنه لم يخلّ بينهم وبين أنفسهم ؛ فإنه ليقتصد
إلى البيت فيسند ظهره إلى الكعبة يقول : « يا معاشر قريش ،
والله ما منكم على دين إبراهيم غيري ، وإنكم لتعبدون ما لا ينفي
عنكم من الله شيئاً . يا معاشر قريش ، إنكم لتأتون الشكر ،
وتقارفون الشر ، وتثدّون البنت ، وتكفرون النعمة . يا معاشر
قريش ، أيما رجل منكم هم أن يقتل ابنته خشية إملاق فانا
أكفيه مثونها . يا معاشر قريش ... يا معاشر قريش ... »
فإذا فرغ من دعوته وجّه وجهه لله يقول : « لبيك حقاً
حقاً ، تعبدوا وريقاً ، عذبت بما عاذبه إبراهيم . اللهم لو أني أعلم
أى الوجوه أحب إليك عبدتك به ، ولكني لا أعلمه ... »
ثم يسجد على راحته ويقول :

أنتى لك اللهم عان راغمُ مهما تجشمتنى فإنى جاتمُ

ولم يزل زيد على ذلك : يذكر قومه ويعيب عليهم ما يعبدون ،
حتى ضاقوا به ؛ فأجمعوا على نكايته وترّبصوا به الشر ؛ ثم ما زال
به عمه (الخطّاب بن نفيل) يؤذيه وينال منه حتى أجاءه
إلى (حراء) لاثذاً بالله مستجيراً ؛ فوكل به الخطّاب شباباً
من سفهاء قريش يأخذون عليه الطريق وينالونه بما يكره إن هم
أن يعود إلى مكة ، خشية أن يفسد عليهم دينهم ويتأثره بتوهم .
وكانت زوجه فيمن كان من عيون الخطّاب عليه ، لا يكاد زيد بهم
أن يدخل مكة حتى تؤذّن به الخطّاب فيقف له ؛ ثم يتناولوه

لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُومِنِي

لِلْأَسْتَاذِ مُحَمَّدِ سَعِيدِ الْعِرْمَانِ



« ملّت البشرية
إن كان هذا مبلّغها من
العلم بالله ! »

همس بها « زيد »
في أذن صحابته فالتفتوا
إليه مذعورين يسألونه
الصمت والحذر !

هذه بطون قريش
جميعاً في عيد لهم عند
صنم من أصنام الجاهلية
مُلبّين ضارعين

يعظمونه وينحرون له ما كفين عليه . ذلك شأنهم في كل عيد ..
وأولئك أربعة نفر من قريش قد اجتمعوا لغير ما اجتمع
آباؤهم وأبناؤهم وإخوتهم من سائر قريش ، ينظرون إلى القوم
في تجميعهم حائنين حول المبود الأخرس لا يتكلمون ، وعلى
شفاههم بسات ، وفي أعينهم نظرات يخافتون بها ، وفي صدورهم
رغبات مكبوتة ، لو تآتّى لهم لأهواراً على هذا المبود فكبّوه
على وجهه جذاذاً محطاً !

وانتبد الأصدقاء الأربعة ناحيةً يتناجون في همس ، وإن
المكان ليضجّ بمن فيه بين داعر ومُكبّ وسائل ومستغفر .
وعاد الرجل يقول لصحابته :

« أما والله إنكم لتعلمون ما قومكم على شيء ؛ لقد أخطئوا
دين أبيهم إبراهيم . ما حَجَرٌ نُطيف به لا يسمع ولا يبصر
ولا يضر ولا ينفع ؟ يا قوم التمسوا لأنفسكم فإنكم والله ما أنتم
على شيء ! »

ويؤمّن صحابته على ما يقول

أن يبلغ حيث يريد ، فإنه ليقول وهو بلفظ أنفاسه : « اللهم إني أشهدك أني على دين إبراهيم ! » يرحمك الله أباسعيد !

... وأشرق الصبح على أرض الحجاز ، وقاض النور من غار حراء بنمر بطحاء مكة وسيل سيل اليرموك فيمحو الظلمات ويدخل منه في كل دار قبس بضئ . وداعت أشعة الصبح الضاحك نافذة الدار التي آوت زيد بن عمرو بن نقييل عمرًا من عمره ، ثم هجرها ساعيًا إلى الله يبتغي الوسيلة إلى دين الحق ، فكان ولده سعيد بن زيد وزوجه فاطمة بنت الخطاب — من السابقين الأولين في الإسلام ! وعاد النور والإشراق إلى الدار التي يُسزى إليها أولُ مذكر بدين إبراهيم على حين غفلة وضلال . وكان إيمان سعيد واستجابته لدعوة الحق امتداداً لدعوة أبيه في الجاهلية وصفحة مشرقة من التاريخ تنضم إلى صفحات !

ثم دار الفلك دورة ، وإذا فتى عارمٌ من فتيان قريش يدخل دار سعيد متوشحاً سيفه ، وفي عينيه شرٌّ وعلى لسانه وعيد ، فما إن رآه سعيد وزوجه حتى سكت القرآنُ وخفت الصوت وانكشف بعض في بعض ؛ وأوشكت أن تنفض ساعة تزلزل أركان الدار المؤمنة ... يا عجباً ! ما بال هذا الفتى قد نسي ما جاء له ورقٌ بعد عُرّام وعنف ؟ هل كان يقصد إلا هذا الفتى الربّيّ وزوجه ، أن ينالها بأشد الأذى على ما صَبَّأ وفارقا دين قومهما ؟

ها هو ذا في موقفه منهما خاشع الطرف يتلو من صحيفة في يده : « بسم الله الرحمن الرحيم . طه * مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى * إِلَّا تَذَكُّرَةً لِّمَن يَخْشَى * تَنزِيلًا مِّنْ خَلْقِ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ الْوَعْلَى ... »

فما بكاد يفرغ من تلاوته حتى يلتفت إلى كُتْنِه سعيد وأخته فاطمة بنت الخطاب يقول :

« دُلَّانِي عَلَى مُحَمَّدٍ حَتَّى آتِيَهُ فَأُسَلِّمَ ! »

ذلك عمر بن الخطاب وتلك دار سعيد بن زيد بن عمرو ؛ دخلها دخول الفاتك المتعجب لا تهدأ نفسه إلا أن يريق دماً ؛ فما احتوته الدار حتى كان عمرٌ غير عمر !
إن في بعض الأمكنة كسرًا يهمس ، ونجوى تخافت ؛ وإن في هذه الدار ... !

السفهاء من شبابهم بما يقدرّون عليه حتى يعود على وجهه ! رجل فرد في وجه أمة ، قد برى منه أهله ، وتمردت عليه زوجته ، وتذامر سفهاء الإنس وشياطين الجن على مناهضته والوقوف له ؛ ولكنه من قوة الإيمان بحيث يتألب ما لا غلبة عليه !

وأى قوة في الأرض تنال من الرجل يعمر قلبه الإيمان ؟ ... وأرادوه على أن يلزم مكنته من الجبل لا يبرح ، لا هابطاً إلى الكعبة يسبح الله في البيت الحرام ، ولا مُصعداً يلتصق أسباب المعرفة في بلاد الله ؛ ولكن صوتاً من وراء النيب يهتف به ، ونوراً يتنوّره على بعد بضئ بين يديه ، وإيماناً يعمر قلبه بذلل ما يتكاده من عقبات على الطريق .

كان يؤمن إيماناً لا شك فيه أن للسكون رباً غير ما يعبد الخطاب ويطون قريش ؛ هورب إبراهيم وموسى ؛ فتذا يهديه الطريق إليه ؟

... ووجد زيد غفلة من حراسه فأقلت يقصد قصده ، منتقلاً بين الموصل والجزيرة إلى بلاد الشام ، يسأل عن دين إبراهيم ويتنصيه ومضى تنقذه البلاد يستطلع أنباءه بين أحجار اليهود ورحبان النصراني ؛ فما منهم إلا من يبشره بنبي قد أظلم زمانه ، يبعثه الله بدين إبراهيم في أرض الحجاز !

يا ناقُ سيري عَنَقاً فسيحاً إن نبياً قد أظلم زمانه يبعثه الله بالهدى ودين الحق في أرض الحجاز . يا ناقُ هذا سبيلك إلى الوطن الثاني يجمع شملك بالأحباب من آل عدي بن كعب في أرض الهدى والسلام . يا ناقُ هذا خير يوشك أن يتبشق بالنور فسيرى بي إليه أقبس من نوره نوراً لقلبي وسلاماً لروحي . يا ناقُ هذا يومك المأمول تشرق شمسه في حواشي الأفق فأبليغني مأمل قبل الغداة .

ذلك زيد بن عمرو بن نقييل في طريقه إلى مكة يسمى نوره بين يديه إلى أمل رجوه ، فإنه ليحدو بعيره مقتبطاً جذلان أن يعود إلى وطنه ومرتج صباه فيظفر بالحُسَيْنَيْن من لقاء الأهل والولد وصحبة النبي القرشي الذي أظلم زمانه ؛ وإنه ليفد السير وفي نفسه شوق ولهفة ، وعلى لسانه تسبيح ودعاء !

وانطوى الطريق تحت أخفاف البعير الذي أنضاه السرى وجهد السفر ، فلما صار على قربٍ قريبٍ من أرض الحجاز وأوشك أن ينضم بلفاته الأهل والولد ورؤية النبي الذي قطع مفازة الحياة سعيًا إلى لقاءه — عدّا عليه من عدا من أهل السبيل فصّره قبل